عز الدين مصطفى رسول وأحمدي خاني

باسم عبد الحميد حمدي

الدكتور عز الدين مصطفى رسول من كبار المثقفين والباحثين الكرد العراقيين وله تأثيره الكبير في الوسط الثقافي ادبياً وباحثاً فهو استاذ الدراسات الشرقية في عدد من الجامعات العراقية ومنها جامعة بغداد وجامعة السليمانية، وقد درس الاداب في مرحلة البكلوريوس في جامعة دمشق (٥٦-٥٨) ثم اكمل دراسته العليا في الاتحاد السوفيتي السابق وهو يتقن اللغات الروسية والفارسية والانكليزية اضافة الى العربية والكردية.

وأول كتاب للدكتور رسول كان (قاموس مدرسي عربي-كردي) اصدره في بغداد عام ١٩٥٥ ثم اصدر (الواقعية في الادب الكردي) في بيروت عام ١٩٦٦ و(دراسة ادب الفولكلور الكردي) باللغة الكردية-بغداد ١٩٧٠ ثم ترجم هذا الكتاب الى العربية بعد ذلك وعد مصدراً مهما من مصادر دراسته الفلكلورية الكردية، ثم اصدر البروفسور رسول (حول اللغة الكردية الموحدة) في بغداد ١٩٧١ ثم (حول الصحافة الكردية) بغداد ١٩٧٣ اضافة الى قيامه واساتذة اخرين باعداد سلسلة كتب (اللغة الكردية وادابها) للصفوف الثانوية الستة.

ومن بحوثه باللغة الكردية (ففي الطيران) ١٩٧٢ و(علي بردشاني) ١٩٧٣ (بختيار زيور) ١٩٧٨ وعن حياة ونتاجات هؤلاء الكتاب والشعراء اضافة الى اصداره كتاباً عن (مصادر دراسة الشيخ رضا الطالباني) عام ١٩٧٩ وغيرها كثير.

وتعد دراسة د. رسول عن (أحمد خاني شاعراً ومفكراً) التي اصدرها عام ١٩٧٩ من الدراسات المهمة توشقاً وتحليلاً عن الشاعر والفيلسوف أحمد خاني وعصره وادبه، وقد راجع فيه عدة دراسات باللغات التي يتقنها اضافة الى التركية والالمانية.

وقد درس د. رسول حياة خاني وأدبه والغرض من كتابة رائعته الشعرية (مم وزين) ثم درس الوضع السياسي والاجتماعي لكردستان زمن هذا الاديب والفيلسوف، فضلاً عن فصول خاصة عن الحضارة الكردية في (مم وزين) وتحليله للصور الاثنوغرافية الكردية في مم وزين خاني وفصول اخرى عن اهتمامات خاني بالفلك والفلسفة والتصوف وغيرها بحيث غدا الكتاب دراسة شاملة لعصر خاني المؤلف الشاعر ولعصر ملحمته الشعرية وتأثيراتها السياسية والروحية والاجتماعية.

ان أحمد خاني شاعر كردي كبير دون شك لكن دراسة عز الدين مصطفى رسول عنه اوضحت جوانب خافية في أدبه وحياته ومجتمعه هيأ لها الباحث كل إمكانيات الإشهار والتوضيح بلغة صافية شديدة التأثير والالق فاستحق الشكر على اهتمامه الكبير هذا.

خاني وحياته

الدكتور عز الدين مصطفى رسول

الدكتور عز الدين مصطفى رسول

احمدي خاني

برغم ان المصادر الكردية التي اشارت ببعض الاسطر الى حياة احمدي خاني قد تختلف احيانا في تحديد عصره وميلاده، فان خاني يكاد يكون الوحيد من بين شعرائنا القدامى، الذين سجلوا لنا بأنفسهم تاريخ ولادتهم وشيئاً عن حياتهم.

يقول خاني في فصل الختام من مم وزين بصراحة انه قد ولد في عام ١٠٦١ الهجري. ولقد كان علاء الدين سجادي اول الباحثين الذين انتبهوا الى هذه الحقيقة التي غفل عنها اخرون كان من الحري بهم ان يلاحظوها.

لقد وردت في بعض المصادر نتف عن حياة خاني، فقد نسبه عدد من المصادر اعتمادا على لقبه (خاني) الى عشيرة (خانيان) التي لم يحددوا وطنها بصورة مضبوطة، غير ان واحدا من احدث المصادر ينسبه الى قرية (خان) قرب بايزيد. اما عن مسقط راسه فيكاد تؤكد المصادر ولادته في بايزيد، ويبدو ان ذلك قد جاء اضافة على التواتر، من واقع ان خاني قد دفن في بايزيد الشرقية وان ضريحه (لايزال مزارا للناس) فيها.

لقد اسهب علاء الدين سجادي في شرح حياة احمدي خاني وانحداره الاجتماعي ودراسته التي اكد على انها كانت في بايزيدو اورفه واخلاط وبتليس، ويبدو انه يستند في ذلك على الاستفسار الدقيق المتواصل، وعلى مايرويه عن الشاعر جميع المهتمين بأدبه واثاره في كردستان الشمالية، ولسنا نجافي الحقيقة، ان قلنا اننا لانجد حتى الان مصدرا مدونا واحدا يمدنا بضوء عن الشاعر وحياته، وهذا ما يدفعنا للرجوع الى (مم وزين) نفسه لنخرج بعد التفحص الدقيق خيوطاً توضح لنا شيئاً عن حياة الشاعر برغم ان الشاعر يسجل لنا بصراحة كما اسلفنا تاريخ ولادته وسنة اكماله كتابة (مم وزين) الا انه لايذكر شيئاً عن مسقط رأسه او الاماكن التي عاش فيها، غير ان هناك اشارات واضحة ووصفا جغرافيا لمناطق اخرى يمكن ان نعتبرها الصلة التي تربط خاني بهذه الاماكن، في حين لانجد مثل هذه الاشارات الى المناطق التي دلنا التواتر على انه عاش فيها.

ففي صورة فنية يصف فيها الشاعر دموع العاشق المنسابة، يلجأ الى ذكر اسماء اعلام، او ذكر أنهر معينة بالضبط هي (الكر واراس وشط العرب والفرات وجيخون). وقد اخطأ عدد من مترجمي مم وزين في تفسير البيت ورد فيه اسماء (الكر واراس) لسبب او الاخر، في حين ان نظرة واحدة الى خارطة المنطقة تدلنا على ان نهر الكر ينصب منسابا في نهر اراس او ارز او اراكس في نقطة قريبة من الحدود السوفيتية . الايرانية . التركية (حاليا) وليست بعيدة عن بايزيد نفسها. وقد ورد في واحد من اقدم المصادر شيء عن هذين النهرين اذ يقول:

(ونهر الكر الذي يجتاز بلاد تفليس ومدينة صغدبيل من ارضي جزران ثم ببلاد برذعة ويجتمع مع نهر الرس الذي هو نهر ورثان فيصبان جميعا فيه) وهذا ما ينطبق تماماً على ما اورده خاني:

لقد جاء السيل النابع من الكبد دافقاً
وكأنه الكر جاء على ارأس منصبا
وهكذا فمن علة في القلب
فاض سيل ألقى مم على وجهه
شط العرب والفرات وجيخون
كأنها فاضت معا
ومن دموع مم البائس
اخضر الصفصاف على الشاطئين
وما (شط العرب) هنا الا اسم لدجلة استخدمه المعاصرون لخاني في منطقة ديار بكر كما دون ذلك في واحد من مراجع ذلك العصر، وقد استخدم خاني الى جانب ذلك تسمية دجلة (والنهر العميق) بالنسبة لذلك النهر. لقد ورد في (مم وزين) وصف كامل لمنطقة الجزيرة واماكنها ووصفها الجغرافي في متنزهاتها ولايمكن ان يكون ذلك الوصف الدقيق الابريشة من شهد المنطقة بنفسه وعاش فيها.

ففي مخاطبة على لسان (مم) مع دجلة نفسها يقول:

ماذا يدور بخلدك في كل لحظة
اذ تذهب هائما نحو شاطئ (الجزيرة)
فان قد نلت ما تريد.
ان المنزل في قلبك دائماً
وساعداك يعانقان الحمائل دوما
كل هذا وانت لاتفكر في الله
ولاتشكره الف مرة كل يوم
بل انت تنادي وتصرخ كثيرا
فما الذي تبتغيه وتأمله:
لماذا تستغيث دون جدوى،
وتشد الرحال هائماً نحو ديار بغداد
ان صورة الساعدين اللذين يحتضنان الحمائل هي بالضبط صورة دجلة والتفافها حول مدينة الجزيرة، ولايقف خاني عند هذه الصورة بل يقول على لسان (مم) مرة اخرى.

انا مجنون هائم خلفت ملاكي ورائي
انا دجلة خلفت (زنبري) خلفي
وسطائي ونيركزي وسقلان
ده روازه و عمري وميدان
في هذه المتنزهات تتجول انت
وانا وحدي مع الفيافي والصحارى.

وكما يبدو من النص فان زنبري ووسطاني ونير كزي وسقلان ودروازه وعمري وميدان هي اماكن حول مدينة الجزيرة لايزال بعضها قائماً، كما اكد لي ذلك بعض ابناء الجزيرة نفسها. وبرغم عدم تفوق خاني في تصوير الطبيعة ومنح صورة من ادب الوصف او ادب الطبيعة فأن صورة تطابق الوضع الجغرافي للجزيرة تماماً.

كل واد وكل جبل وكل سهل
يشبه ركنا من اركان الجنان
كل روضة هي رياض الخلد الاكبر
كل عين هي من ينبوع ماء كوثر
كل جبل هو من مثل طور موسى
تشتعل بانوار التجلي
كل نهر هو من مثل الثعبان
وكل شجرة خضراء غدت بمعجزة عصا
كل ايكة من فيض الربيع الجديد
تلهب مشاعل من نور البارئ

ومن الطبيعة يعطينا خاني تصويرين دقيقين لمشهد غروب الشمس احدهما في الصحراء ، والاخر في البحر ان دقة الصورتين تدفعنا الى تلمس وتفضيل المشاهدة الحسية للمشهدين من قبل الشاعر على تأثير القراءة ، والى جعلها دليلا على صحة ماتحدثت عنه المصادر من اسفار الشاعر، وقد تكون الصورة الاولى حصيلة زيارة للقسم الصحراوي من الجزيرة والثانية حصيلة مشاهدة الغروب في الاستانة او الساحل السوري.

ويمكن ان نستنتج من كل ذلك ارتباط خاني، بمدينة الجزيرة ارتباطا يتعدى ما يمكن ان نراه بصورة طبيعية في قصة وقعت احداثها في مدينة الجزيرة. فالى جانب هذه اللمحات الدقيقة عن الجزيرة لانجد ذكراً لمدينة اخرى او اشارة اليها، فلم يكن من الممكن ان يترك خاني ذكر مدينة بتليس لو عاش ودرس فيها، خاصة وان خاني قد عاش في فترة انهيار الامارة البتليسية ، وكان من الطبيعي ان تنعكس صورة بتليس المحطمة في شعره ، لو عاش تجربة احتلال تلك المدينة. ثم ان هناك اشارات اخرى واضحة تدل على ان خاني كان يعيش في امارة كردية لاتزال تحتفظ بأمير كردي عليها في الاقل وضع فيه خاني املا في تنفيذ المنهج القومي الذي وضعه بالنسبة للمسألة الكردية، والذي سنأتي على بحثه. اما عن نسبته الى واحدة من عشيرة (خانيان) او قرية (خان) فان الثانية تنشدنا اليها لسببين:

الاول: هو ان النسبة الى (خانين) يجب ان تكون (خانياني) وليس (خاني) ذلك الاسم الذي يذكره الشاعر بالنسبة الى نفسه.

الثاني: هو ان انتساب خاني الى عائلة متنفذة كبيرة، وكونه ابن رئيس تلك العشيرة كما تواتر ذلك، تضعفه اشارات واضحة في انه ينتسب الى فقراء الناس ، ففي توطئتنا لتقديم القصة الى الناس يقول:

انا عطار ولست جوهريا
انا قد غرست نفسي ولم يعن احد بتربيتي

انا كردي جبلي، من هذه السفوح
وهذه الكلمات جئت بها من الصميم الكردي
فوقعوها بحسن الطافكم
واصغوا اليها بسمع اصغائكم.

ولايمكن ان تعتبر هذه الكلمات شيئاً من باب التواضع، فأن الخط الفاصل الواضح الذي يضعه الشاعر في كل مجال بين الفقراء والاغنياء ووقوفه بثبات الى جانب الفقراء ، وكرهه الشديد للمال ورعاته ومعاداته للظلم ليدل على انحدار الشاعر الاجتماعي اكثر من ان يكون عطفا متعاليا على الفقراء ، وان وقوفه بوضوح ضد الحكام والامراء مما سنأتي عليه، وفلسفته في الابتعاد عن الحكام ليفند بعض ما تواتر عنه وخاصة عن محاولة الوصول الى السلطان في سفره الى الاستانة.

ان خاني ليبتعد في تفكيره عن كل مايمت الى العلاقات القبلية ، سواء في نظرته الى المرأة او الى علاقات القرابة، مما يثبت لنا الى جانب اصالة فكره المتفتح، انحداره الاجتماعي البعيد عن الا لتزام بالعلاقات القبلية.

تاريخ تدوين مم وزين وارتباطه بتاريخ وفاة الشاعر:

ان اول مصدر، بل ان المصدر الوحيد الذي يحدد تأريخاً معيناً لوفاة احمدي خاني هو تاريخ الادب الكردي نفسه، اذ يؤكد صاحبه مستنداً الى عبارة وجدت على ظهر كتاب وهي (طار خاني الى ربه) ان هذه العبارة قد صيغت كما دون على ظهر ذلك الكتاب، ليدل على وفاة خاني حسب طريقة تدوين التواريخ المعروفة، وعلى هذا الاساس فقد اعتبر عام ١١١٩ هـ. ١٧٠٧/ ١٧٠٨ ميلادي عام وفاة الشاعر وليس لدينا دليل اخر يؤكد او ينفي ذلك التاريخ ، غير ان شيئا واحدا يضفي عليه شيئا من الشك، غير الراسخ الا وهو الاختلاف في تاريخ تدوين (مم وزين) أو تاريخ الانتهاء منه، فان هناك بيتا من الشعر يلي البيت الذي يدون فيه الشاعر تاريخ ولادته ، وقد دون ذلك البيت في اكثر النسخ على الشكل التالي:

لقد وصل في هذا العام الرابعة والاربعين
امام المذنبين هذا .

وقد اعتبرت مصادر كثيرة ومنها تاريخ الادب الكردي ان خاني قد انتهى من تدوين (مم وزين) وهو في الرابعة والاربعين الا ان هناك نسخاً من الملحمة تشذ عن ذلك، اذ نجد فيها (الرابعة والستين) ومنها المخطوطة من النسخ التي اعتمد عليها رودينكو في تحقيق واخراج (مم وزين) ونسختان مخطوطتان وجدتهما في مدينة زاخو ، وان صح ذلك فان هذا يضفي شكا على التاريخ الذي مر انفاً، والذي اعتبر تاريخاً لوفاة خاني اذ يكون خاني قد أنهى (مم وزين) بعد ستة اعوام من ذلك العام الذي اعتبر عام وفاته. وامام هذه القرينة الجديدة، لايمكننا الا اللجوء الى الاستقراء المنطقي وأدلته ونرى المنطق امام سؤال: في أي سن كتب خاني (مم وزين) أفي الرابعة والاربعين ام في الرابعة والستين ؟ ان العنفوان في (مم وزين) وحرارة المشاعر والحماس القومي فيه ليأخذ البوصلة شطر الاول، اما النضج الفلسفي والتكامل الصوفي، والادراك العميق المتبصر الحكيم في المسألة القومية ، وهذا الزخم من القراءة، والمطالعة والاطلاع الذي نرى في (مم وزين) شيئا من تجسيده وفيضه لتأخذنا منساقين نحو (الرابعة والستين) وبرغم كل ذلك فان هذه واحدة من المسائل التي تقف امام البث النهائي فيها ممتنعين عن الادلاء بالصوت النهائي، بانتظار معطيات تأريخية وعلمية، بل وبأنتظار ما يمكن ان نصل اليه من اثار في المستقبل ، لنجعل به انذاك من الدليل القاطع صوتاً، أو من المنطق مرشداً مصوتاً لاخر مرة.

شيء عن آثار خاني:

ان جميع المصادر الي تحدثت عن خاني، والقول الشائع على كل لسان وفي كل حلقة من هذا المسجد او ذاك بكردستان كلها، لم تكن تذكر له من الاثار سوى "نوباري بجوكان" و"عقيدا ايمان" و"مم وزين" ولقد كانت هذه الاثار متداولة بنسخها المتعددة في جميع ارجاء كردستان وفي شمالها على الاخص. فلا يكاد مسجد او مدرسة دينية يخلو من نسخة مخطوطة او اكثر لها جميعاً، وقد طبعت الاثار الثلاثة مرات عديدة وبطبعات مختلفة ، كما نشرت قصائد لخاني نقلها المستشرق أ. زابا مخطوطة مع ما نقله من مخطوطات الى سان بيتربورغ (لينينغراد حالياً) ووجدت له رباعيات أو قصيدة مكونة من رباعيات كتبت باللغات الشرقية الاربع، نشرت في كتاب حديثاً. ولم نجد في كل ما سلف ذكرا لمؤلفات أخرى تنسب الى خاني ، ولم نجد في اول مطبوع تحدث عن (مم وزين) خاني ونشر اقساما منه ذكرا لغير هذه الاثار الثلاثة، حتى وجدنا في السنوات الاخيرة اشارة الى وجود قصة كتبها خاني عن (يوسف وزليخا) ، وكان ان اعلن المجمع العلمي الكردي مؤخرا عن عثور لجنة تابعة له على نسخة مخطوطة من قصة (ليلى ومجنون) التي كتبها احمدي خاني في مكتبة الشيخ ممدوح البريفكاني بدهوك ، واعلن المجمع عن وجود نسخة من (يوسف وزليخا) من تأليف خاني بأحدى المكتبات الخاصة يحاول المجمع الحصول عليها. غير ان رئيس اللجنة المذكورة التابعة للمجمع اوضح في مقال له وصف فيها مخطوطة (ليلى ومجنون) شكوكه من نسبة القصة الى خاني ولم يبت فيها نهائياً.

من دراسة نصي (ليلى ومجنون) ، (ويوسف وزليخا) المخطوطين توفرت أدلة عديدة على نفي نسبة القصتين الى خاني، غير ان شيئاً لم يكن يدور في البال قد وقف الى جانب النفي المطلق من دون حاجة الى أي دليل ، ذلك ان نسخة (ليلى ومجنون) هذه هي مخطوطة لنفس قصة (ليلى ومجنون) التي كتبها حارث البدليسي والتي قامت م. رود ينكو بتحقيقها وترجمتها وطبعها، اما قصة (يوسف وزليخا) فهي ايضا نسخة اخرى من قصة سليم بن سليمان المحفوظة في خزائن المخطوطات في لينينغراد وبرلين وكان من الاجدر بالمجمع التريث والتأكد من نسبة هاتين القصتين الى خاني قبل الاعلان عنها على تلك الصورة.

ان بروز قصة (مم وزين) وانتشارها أديا الى تقليدها في الصور والسبك معا كما نرى ذلك واضحاً في قصتي (ليلى ومجنون) (ويوسف وزليخا) ، اذ ان تأثير (مم وزين) واضح فيهما بصورة جلية. كما ان الشعبية الواسعة التي تمتع بها خاني من خلال انتشار قصته أدت الى نسبة كتب وآثار عديدة اليه منها ما كتبه غيره، ومنها ما لم يكتبه ايضاً، ومن الجدير بنا ان لانغفل هذه الحقيقة لدى دراسة نسبة اثر جديد اليهن كما لايمكن ان ننفي بصورة مطلقة وجود آثار أخرى غير ما أسلفنا قد يكون قلم خاني المبدع قد خطها وحالت ظروف كردستان دون معرفتنا بها. وفي عالم العثور على المخطوطات شواهد كثيرة على كشف مثل هذه الاثار.

ان خاني نفسه يظهر في بعض أبيات (مم وزين) ان اسمى مم وزين كانا موجودين قبل ان يجعل هو من مأساتهما قصة ومثل ذلك قوله في اسباب تأليف القصة:

كي اشرح هموم قلبي وابثها
واجعل من مم وزين حجة
وان اخرج انغامها من حجاب
وابعث زين ومم من جديد
لقد غدت الحبيبة والعاشق معلولين
وانا اليوم كطبيب حاذق
سأداويهما واضمد جروحهما
وانهض من لا مدد لهما.

وبين خاني مرة اخرى انه سيرفع اسمي عاشقي القصة في قالب منظم جديد من مم وزين:

كي اجعلهما مشهورين طرازا واسلوبا
وامنح المحب والمحبوب مكانا ممتازا .

ان هذه الفكرة ، أي الاقتباس واحياء اسمي مم وزين تكشف في ابيات اخرى حيث يقول:

ان اجزاء كتاب العشق
قد قام الصحاف والمجلد المجازيين
بتحشيها وتجميعها وتركيبها
وتنظيمها وترتيبها على هذا النسق
اذ قال: ان زين ومم المدللين
عندما تفجر وانكشف عندهما الداء.

واذ يرى خاني . مم وزين . مظهراً للكلمة الكردية، فأنه يتوجه بكل تواضع الى القارئ الكردي ويقدم اليه نتاجه:

انا كردي جبلي من هذه السفوح
وكلماتي هذه هي من الصميم الكردي
فامضوها بحسن الطافكم
واصغوا اليها بسمع انصافكم .

واذ يرينا خاني في الفصل الاخير من مم وزين العناصر اللغوية للقصة فانه يقسم مم وزين من حيث المضمون والمادة الى ثلاثة اقسام:

جزء من الشائع في البهتان
جزء هو حجة وجزء هو بهتان.

المحبوب والحبيب

المحبوب والحبيب قد غدوا كيس نقود
أي طعم في النقد والدينار
أصبح كل واحد منا لهما عاشقاً
ان اعطيت العلم كله مقابل فلس واحد
وبعث الحكمة كلها بفلس واحد
فلن يجعل أحد من جامي سائس خيل
ولن يستخدم احد نظامي خادماً عنده
(نظامي، جامي شاعران معروفان)

هموم القلب

ايها القلم.. قد اطلت الكلام
كفاك هذه الرسالة.. الا ترى انك قد اوسختها
فالكلام ان كان شبيهاً بالدرر
لا يبقى له قدر.. عندما يكثر
الا ترى الجواهر ذات قيمة
لانها قليلة ونادرة
فمن السهو والغلط والخطأ والنسيان
قد حررت دون تأمل
فمن ذا الذي يتحمل منك ذلك..